

الأنا الجزائرية في مواجهة الآخر الفرنسي الكولونيالي ودور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تحرير الوعي - خطابات محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا -
سيف الدين شاعة

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر، جامعة ابن خلدون - تيارت،

sifeddine.chaa@univ-tiaret.dz

تاريخ القبول: 2024/09/04

تاريخ المراجعة: 2024/07/16

تاريخ الإيداع: 2024/04/04

ملخص

حاول المستعمر الفرنسي أن يقضي على مقومات وهوية الشعب الجزائري، تبنى في ذلك خططا عميقة وخطابات كولونيالية وأفعالا إجرامية لا زالت تبعاتها النفسية والجسدية تتوارثها الأجيال، كرد فعل قام مثقفونا بتوعية واستماتة في المقاومة الحضارية، تلبية لنداء الوطن وكشفا لزيغ الرسالة الحضارية وسياسة الإدماج المنتهج، كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أحد أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يؤكد في خطابه الإصلاحية على انفصال الأنا الجزائرية عن المستعمر الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: استعمار، خطاب كولونيالي، إصلاح، مقاومة، وعي.

**The Algerian Ego in Facing the French colonial and the Role of the Association of Algerian Muslim Scholars in Liberating Consciousness
- Mohamed Bachir El Ibrahimi's Speeches As Model -**

Abstract

The French colonialism tried to eliminate the components and the identity of the Algerian people. In doing so, it adopted profound plans, colonialist discourses, and criminal acts whose psychological and physical consequences transmitted through generations. As a response, our intellectuals raised awareness and were desperate to engage in civilizational resistance in response to the nation's call. They exposed the falsity of the civilizational message as well as the adopted policy of integration. Sheikh Mohamed Bachir El Ibrahimi, one of the leaders of the Algerian Muslim Scholars Association emphasizes in his reformist speeches the separation of the Algerian ego from the French colonialist.

Keywords: Colonialism, colonial discourse, reform, resistance, awareness.

**L'ego algérien face à l'autre colonial français et le rôle de l'Association des savants musulmans algériens dans la libération des consciences
- Les discours de Mohamed Bachir El Ibrahimi comme modèle -**

Résumé

Le colonisateur français a essayé de détruire les fondements et l'identité du peuple algérien, en adoptant des procédés, des discours coloniaux et des actes criminels, dont les conséquences psychologiques et physiques se transmettent encore de génération en génération. Pour répondre à l'appel de la patrie, nos intellectuels ont réveillé le peuple en utilisant la résistance civilisée et en exposant le faux message de la civilisation ainsi que la politique d'intégration adoptée. Cheikh Mohamed Bachir El Ibrahimi qui était l'un des fondateurs de l'Association des savants musulmans algériens, dans ses discours réformistes, met l'accent sur la séparation de l'identité algérienne et celle du colonisateur français.

Mots-clés: Colonialisme, discours colonial, réforme, résistance, conscience.

المؤلف المرسل: سيف الدين شاعة، sifeddine.chaa@univ-tiaret.dz

توطئة:

يقوم الفكر الاستعماري على المغالطة والخداع بحيث يخفي ما لا يبدي ويسعى إلى تفكيك المجتمع واللعب على أوتار عدة على سبيل المثال لا الحصر أذكر: العرقية والطائفية، وطمس الهوية، واستحداث الثقافات وتشويهها، ونشر الفتن وتجهيل العامة، واستئصال بوادر المقاومة وقذف أصحابها بأشنع التهم، دون أن ننسى الخناق الاقتصادي والسياسي والقهر العسكري وما يقوم عليه من ظلم وتعذيب واخضاع بقوة السيطرة، متجردا في ذلك من كل دين وأخلاق إنسانية، غير معترف بالمواثيق الدولية ولا هيئات حقوق الإنسان العالمية.

فرنسا الاستعمارية يداها ملطخة بدماء الجزائريين، صفحات تاريخها في الجزائر كُتبت بأبشع الأفعال قتلا وتعذبا وحرقا وتجارب النووية وتدميرا للبنية التحتية (...) بل الأفطع من هذا، كان يُبرر المستعمر جرائمه بخطابات مخانلة وبراقة يجعلها شعارا له، مثل قوله: هدفنا نشر الحضارة والمدنية، وبناء دولة الحقوق والواجبات، وحماية العامة من قطاع الطرق واللصوص (يقصدون الثوار ورافضهم).

أما الغاية الكبرى فكانت ربط تاريخ المحتل بتاريخ الدولة المستعمرة لأجل التأصيل له فيها، كما هدف العدو إلى صنع عملاء وأتباع يغريهم بالمال والمنصب وقبل ذلك يتم غسل أدمغتهم، فيضرب انتماءهم دينيا ولغويا وثقافيا، حتى يتسنى له بعد ذلك أن يستغلهم في تحقيق مخططاته ويكونون يده التي تضرب فتدمي لأنهم أعلم بنقاط ضعف إخوانهم وأبناء وطنهم - هذه الفئة أجبن من أن تواجه المستعمر خوفا يسيطر عليها ويجعلها دمي موجهة- يقضي بهم العدو مصالحه ثم يتركهم لمواجهة مصيرهم المحتوم إما بالتخلي عنهم أو دفعهم إلى العامة كي ينتقموا لأنفسهم من أذاهم.

وقفت بالمرصاد نخبة واعية متشعبة بالثقافة والهوية الوطنية عميقة التفكير، استطاعت أن تبصر الخطر وتكشف أسرار هذه الخطابات وتغوص في لبها، فرفعت القلم وارقت المنابر وأخذت تناشد عامة الشعب أن يعمل عقله ويقارن بين قول وفعل المحتل معهم، كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بروادها رمزا وقوة في الكفاح وفي إدراك المبطن عن طريق المعلن، تجسد عملها في نشاطات إصلاحية تدعم المقاومة الثقافية والحضارية ثم تربية أجيال تنتزع الحرية وتمهد الطريق لبناء دولة جزائرية حديثة محصنة وقوية، تمحورت إشكالية بحثنا حول: ✓ كيف واجه محمد البشير الإبراهيمي سياسة المستعمر الفرنسي؟ وما مدى مساهمة خطابه الإصلاحية في توعية الشعب الجزائري؟

تتفرع من هذه الإشكالية مجموعة أسئلة، أهمها:

- كيف سعى الخطاب الكولونيالي إلى قلب الحقائق وخداع العامة؟
- أين تكمن خطورة الأفكار المسمومة التي روج لها المستعمر؟ وما هي تبعاتها؟
- كيف دافعت جمعية العلماء المسلمين عن الهوية الوطنية الجزائرية؟ وما دورها في ذلك.
- ما هي القضايا التي ركز عليها البشير الإبراهيمي؟ وما علاقتها بذات ومستقبل الدولة الجزائرية؟
- أما الأهداف التي جعلتنا نخوض غمار البحث فعدة ومتنوعة، منها:
- التذكير بدور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفضلها في مقاومة المستعمر الفرنسي ونشاط روادها التوعوي والإصلاحي.
- التأكيد على الوحدة الوطنية والاستفادة من التجارب الماضية في مواجهة التدخلات الأجنبية.

- مقارنة الأمس باليوم وضرورة عدم الانجرار خلف النعرات العرقية والفروقات الجهوية والتتديد بخطرهما في بناء الوطن وتقديمه.

- النزول عند ثقة الشهداء بنا وإيثار المصلحة العامة على الخاصة، دون أن ننسى وجوب الوقوف على مبادئ الثورة ومواثيقها، التي رفعها المجاهدون وضحو لأجلها.

وقع اختيارنا في هذه الدراسة على خطابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي التي سنتعرض لها تطبيقاً عن طريق الوصف والتحليل، حيث عالجتنا المواضيع التي استهدفها المستعمر وما قابلها الإبراهيمي من خطابات عرّتها وجردتها من كل مصداقية.

1- الكولونيالية (المفهوم والأهداف):

جاء في تعريف الاستعمار أنه: "هو تسلط دولة على بلاد غير بلادها الأصلية، من أجل استغلال ثروة هذه البلاد الاقتصادية، وتعمل الدولة المستعمرة على بسط نفوذها السياسي على البلاد المستعمرة من أجل تحقيق أهدافها، ويتخذ أشكالاً متعددة منها الاحتلال العسكري المباشر والغزو الفكري عن طريق نشر لغة وفكر الدولة المستعمرة أو صورة اتفاقات سياسية أو شكل سياسة عنصرية.

أما الاستعمار الجديد: فهو فرض السيطرة الأجنبية من سياسية واقتصادية على الدولة مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها، دون اللجوء إلى الأساليب الاستعمارية التقليدية ويطلق عليه الإمبريالية الجديدة، يستعمل وسائل جديدة لنقادي المعارضة الشعبية وكسب التأييد، يكون عن طريق المنح والاتفاقيات والقروض من أجل التدخل في شؤون الدولة مستقبلاً بعد أن يتأزم وضعها وترتفع ديونها لأجل السيطرة عليها⁽¹⁾ ومنه فالاستعمار يحمل معنيين الأول تمثل في الغزو العسكري واجتياح الدول والأراضي المستهدفة وفق منطق القوة والهيمنة لأجل سلب خيراتها وتغيير تركيبها السكانية ومحو هويتها خدمة لمنافع المحتل، في حين أن المعنى الثاني يكون لنفس الأهداف لكن بطرق مستحدثة عن طريق الشركات متعددة الجنسيات والقروض والغزو الفكري دون اجتياح عسكري مباشر، لكن مع الإبقاء على التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد وخصوصيتها.

في مفهوم آخر نجد أن: "الكولونيالية، أو الاستعمارية (colonialism)؛ مصطلح يطلق على الهيمنة والسيطرة والتأثير الذي تفرضه دولة مستعمرة على الكيان التابع لها، أو على دول وشعوب دول أخرى تقع تحت حكمها أو سيطرتها في جميع المجالات، سواء السياسية، أو الاجتماعية أو الثقافية. وقد نشأ هذا المصطلح بالتوازي مع ازدهار الرأسمالية كقوة عملاقة صاعدة في العالم الغربي، والغزو الأوربي لآسيا وإفريقيا، وهو مصطلح مرادف للإمبريالية"⁽²⁾ من خلال هذا التعريف نلاحظ أن مصطلح الكولونيالية مرتبط بالهيمنة والسيطرة، فالمستعمر يدخل بالقوة على الدولة الضحية بنية القضاء على شخصيتها واختلافها عن باقي شعوب العالم، يمس جميع المجالات -يجعلها تابعة وخادمة لمصالحه- يرتبط الاستعمار بالغزو الأوربي والفكر الاقتصادي الرأسمالي لحاجته الشديدة للموارد الطبيعية واليد العاملة والأسواق الخارجية.

شهد أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر حركة توسع في النفوذ الأوربي وكشوفات جغرافية كانت لنفس الغرض، فقد "صاغت تجربة الاستعمار أو الكولونيالية حيوات وأعمار ثلاثة أرباع البشرية، التي تعيش في عالم اليوم. وكانت هذه الصياغة من العمق لدرجة أن تأثيرها، لم يقتصر على المجالات السياسية والاقتصادية وحدها، بل تعداه إلى المجالات الثقافية والفكرية والإيديولوجية"⁽³⁾ عانت الدول الإفريقية من ويلات الاستعمار الأوربي ردحا من الزمن والذي خلف وراءه آثاراً وخيمة "إن السكان الأصليين والقبائل والجماهير والفلاحين

وأمثالهم يتعرضون في الوضع الكولونيالي لعملية نزع إنسانيتهم بصورة كاملة بفعل العنف الواقع الكولونيالي وخطاباته التي تصل إلى درجة أنهم لا يبدون قادرين على الربط بين أفكارهم بالذات⁽⁴⁾ رغم الآثار المادية الجلية كخراب البنية التحتية واستنزاف الثروات الطبيعية واستعباد الشعوب، إلا أنها لا تُقارن بتاتا بالجانب النفسي الذي عانت ويلات الأجيال وأثر على مردودها الفكري والثقافي.

يحتاج المستعمر لتبرير أفعاله خطابا يكون ذريعة يتبناها لتحقيق أهدافه "لذلك فالخطاب الكولونيالي منظومة من المقولات التي يمكن إطلاقها على المستعمرات والشعوب المستعمرة، وعلى القوى المستعمرة، وعلى العلاقة بينهما. وهو منظومة المعرفة والمعتقدات بشأن العالم الذي تحدث داخل أركانه أفعال الاستعمار. وعلى الرغم من أن هذا الخطاب يتم توليده داخل مجتمع المستعمرين وفي حدود ثقافتهم، فقد صار هو الخطاب الذي قد يرى المستعمرون أنفسهم داخله أيضا. وعلى أقل الافتراضات يخلق هذا الخطاب صراعا عميقا في وعي المستعمرين بسبب تصادمه مع المعارف وأنواع المعرفة الأخرى⁽⁵⁾ فالخطاب الاستعماري هو ذلك الفكر والمقولات القائمة بين الدولة المستعمرة والدولة المستعمرة، حيث يتكلم المستعمر بلسان الضحية ويُزيف التاريخ والأحداث ويعمل على ابتكار صورة إيجابية عنه، يُحدث بها صراعا نفسيا عميقا لأجل خلخلة قيم ومبادئ الأنا الراضة له، وينتج عن ذلك أن يكون الفرد المستعمر بشخصية ضعيفة يرى أنه لا يرقى لثقافة ولغة الدولة الاستعمارية وتنشأ عنده القابلية للاستعمار ويعظم في نفسه المحتل، بعدها يتنازل تدريجيا عن هويته وشخصيته للآخر المستعمر كي ينوب عنه في القول والفعل ويتقمص جميع أدواره في الحياة.

يعمل الخطاب الكولونيالي على "تصوير الشعوب المستعمرة، أي كانت طبيعة تشكيلاتها الاجتماعية وتواريخها الثقافية، بوصفها (بدائية) في مقابل شعوب المستعمرين (المتحضرة)، ينزع الخطاب الكولونيالي بطبيعة الحال، نحو استبعاد المقولات المتعلقة باستغلال الموارد المملوكة للمستعمر، والمكانة السياسية التي تكتسبها القوى المستعمرة، وأهمية توسيع الإمبراطورية بالنسبة للسياسة الداخلية في الدولة المستعمرة"⁽⁶⁾ يمكن القول إن الخطاب الكولونيالي خطاب زائف موجه لخدمة مصالح القوى المهيمنة فهو يُنافي الحقيقة، يبحث عن موقع في نفوس الذين يقبلونه ويضمنون له موطن قدم في ذلك المكان، تلك الخطابات تشتغل على العقل الباطن وتنتشر وفق مخطط مدروس مُعدّ للتنفيذ وتستهدف فئة معينة وعيها محدود يمكن أن تتقبله وتكون جزءاً منه، لا يستطيع اكتشاف خداع الخطاب الكولونيالي إلا من كان على درجة كبيرة من الوعي وقادرا على قراءة المضمير والعميق من الخطاب.

كان الهاجس الاستراتيجي للحركة الاستعمارية الفرنسية احتلال الأرض ومحتوياتها، كما كان همها المركزي اختراق الإنسان الجزائري في فكره وثقافته. ومن أجل ذلك وظفت فرنسا كل إمكانياتها العسكرية والفكرية للسيطرة على السكان الجزائريين الذين كانوا غير مستعدين للخضوع للمستعمرين. ولهذا كان اللجوء إلى العنف والتدمير أمرا ضروريا لتحقيق المشروع الاستعماري الاستيطاني في الجزائر⁽⁷⁾ فرضت فرنسا على الجزائر سياسة جائرة وقوانين جبرية لإخضاعها قهرا وتحقيقا لمصالحها على المستوى المتوسطي والبعيد، فالحيمنة كانت مطلقة وتم فيها خرق الأعراف والأخلاق والمواثيق الإنسانية، تقوم سياسة الاستعمار التقليدي على اجتياح الدول بقوة السلاح والعتاد من أجل إرهاب الشعوب وبالتالي كسر روح المقاومة ونشر الخوف والفرع ثم تبدأ بعدها عملية الاختراق وتوريث التبعية عن طريق تنشئة علمية وثقافية خاضعة للمنهج والمخطط الكولونيالي.

مجمل القول أن الكولونيالية هي سيطرة الدول العظمى القوية على الضعيفة في مختلف المجالات وجعلها تابعة لها وخادمة لمصالحها عبر التدخل العسكري أو الغزو الفكري والثقافي وبتنفيذ خطط وقرارات مدروسة أو الترويج لأخبار مغرضة بغية تحقيق منافع على المدى المتوسط والبعيد، تمس الفرد في لغته ودينه وهويته وثقافته وتتعلق أيضا بالأرض وثرواتها؛ ينظر للآخر نظرة دونية ولديه القابلية للاستعباد والإنابة عنه في استغلال خيالاته مثلما حصل مع المحتل الأوربي في إفريقيا.

2- الحركة الإصلاحية في الجزائر إبان فترة الاستعمار:

جاءت كثير من التعاريف حول الإصلاح واتفقت جميعها في المعنى؛ نورد في هذا المقام تعريف الشيخ مبارك الميلي (ت 1945م) في قوله: "الإصلاح نبذ الفاسد من العقائد والعوائد، وإرشاد إلى ما هو صالح ليؤخذ وغايته ترقية المجتمع في سلم السعادتين الدنيوية والأخروية"⁽⁸⁾ ومنه فهو تغيير جذري يشمل جميع الميادين، دينية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، يتبع المؤهلون والمختصون في عملية الإصلاح وسائل ومناهج وخطط مدروسة من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة المتمثلة في النهضة والتغيير إلى الأحسن وفق ما يخدم دولة أو أمة معينة يُنطلق في عملية الإصلاح من القرآن والسنة وتجارب سابقة كان لها الأثر الكبير في تحقيق الازدهار والتطور خلال حقبة زمنية معينة، يلجأ الأفراد إلى الإصلاح حينما يدركون خطورة الوضع من ضياع المقومات والهوية وتفكك داخلي وصراعات فرضها الواقع أو العدو.

تأثر علماء الجزائر بالحركة الإصلاحية التي كانت في المشرق ثم توسعت، استشعروا أهميتها وما يمكن أن تنتج إذا ما وجدت أرضا خصبة في الجزائر التي كانت تنح من سياسة الاستعمار وممارسته المجحفة في حق الشعب، حمل لواء الإصلاح في الجزائر إبان فترة الاستعمار جمعية العلماء المسلمين "كما أن رفع العلماء لثلاثية 'الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني' ونضالهم لأجل ترسيخها عبر نشاطهم الإصلاحي والتعليمي قد أسهم في تطوير الوعي الوطني الجزائري بفكرة القومية والشخصية الجزائرية المستقلة، حتى أن البعض أكد بأن أعظم ما تقدّر عليه الجمعية وتحترم من أجله هو تأكيدها وترويجها لفكرة الأمة الجزائرية والدفاع عن أصالتها، وهو ما عبر عنه ابن باديس في حوار فكري وسياسي حول قضية أساسية هي قضية اندماج الأمة الجزائرية في الكيان الفرنسي، فقد تصدى ابن باديس باسم الجمعية لقضية التجنيس (Naturalisation) التي كانت مطروحة بحدة من طرف النخبة الاندماجية بفتواه الشهيرة بحرمة التجنس؛ إذ اعتبره كفرا وارتداد عن الإسلام"⁽⁹⁾ يشهد التاريخ لجمعية العلماء المسلمين وقوفها سدا منيعاً ضد سياسة الاستعمار في ضرب الهوية الوطنية ووحدة الوطن، فهي لم تتوان في رفض التجنيس والدفاع عن المقومات الوطنية للأمة الجزائرية المسلمة، منتهجين في ذلك المنهج الإصلاحي الشامل وسياسة التوعية بأصالة الجزائر وتاريخها، المنافي للاندماج مع الاستعمار، محذرين من خطر المستعمر وفضح مخططاته، فكانت أهداف الجمعية "كالآتي:

1- إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع، وتطهيرها من مظاهر التخاذل والتواكل التي تغذيها الطرق الصوفية المنحرفة.

2- محاربة الجهل بتنقيف العقول، والرجوع بهما إلى القرآن والسنة الصحيحة، عن طريق التربية والتعليم.

3- المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، بمقاومة سياسة التنصير والفرنسية التي تتبعها سلطات الاحتلال.

4- ترقية اللغة العربية وتبليغ رسالة الإسلام بمفهومه الصحيح، والنهوض بالمجتمع الجزائري فكريا، وثقافيا، وتربويا⁽¹⁰⁾ هذه البنود العريضة تم تبنيها أساسا للنهوض بالأمة الجزائرية المسلمة المتميزة بهويتها والفريدة بشخصيتها، تقوم على اللغة العربية والدين الإسلامي لأهميتهما في رفض مشروع الكولون وسياسة التنصير المفروضة قهرا.

3- الأنا الجزائرية ضد الآخر الفرنسي في خطابات محمد البشير الإبراهيمي (1889م-1965م):

لا يستطيع أي فرد جزائري اليوم أن يجحد أو ينكر جهود العلامة محمد البشير الإبراهيمي الإصلاحية في الدفاع عن الأمة الجزائرية ومقوماتها، كان قلمه بالمرصاد للسياسة الكولونيالية وأشكالها، فأخذ ينشر الوعي ويفضح الخطابات الزائفة، رفع شعار الوحدة وحرّض على مقاومة المستعمر بمخاطبة النفوس وتحرير العقول من سياسة الاستعباد والتفرقة وطمس الهوية، حيث تعلق بعض الجزائريين إبان الاحتلال بعادات وطقوس أفسدت عليهم دينهم ومرجع ذلك إلى عاملين؛ الأول هو نقشي الأمية وانحصار التعليم في مناطق وفئات من المجتمع دون غيرها، أما الثاني فيتمثل في محاربة فرنسا للإسلام وكل ما له علاقة به، إذ انتشرت البدع والخرافات فصار هناك من يقدس الأولياء ويتضرع ويذبح لهم ويطلب حاجته من أهل القبور، وآخرون يرون أن المستعمر قضاءً وقدّر وجب التسليم والخضوع له، هذه الأمور الشركية أفسدت توحيد الله الواحد والفهم الصحيح للدين الإسلامي. عمل الإبراهيمي النضالي مع جمعية العلماء المسلمين ضد المستعمر يراه أعظم واجب فيقول: "هذه المرحلة من حياتي هي مناط فخري وتاج أعمالي العلمية والاجتماعية، والأفق المشرق من حياتي، وهذه هي المرحلة التي عملت فيها لديني ووطني أعمالا، أرجو أن تكون بمقرّة من رضى الله، وهذه هي المواقف التي أشعر فيها، كلما وقفت أردّ الضلالات المبتدعة في الدين أو أكاذيب الاستعمار. أشعر كأن كلامي امتزج بزجل الملائكة بتسييح الله"⁽¹¹⁾ يفخر الإبراهيمي بأبهى مراحل حياته التي خدم فيها الدين الإسلامي ولبى نداء الكفاح، إذ وقف بالمرصاد ضد الآخر المغتصب للأرض والسالب للهوية، أراد أن يكون الوعي والنهضة شاملين يمسّان كل من اللغة والدين الإسلامي والتعليم وكل ما له علاقة بقيام المجتمع وخدمة الدولة الجزائرية، فكان مواكبا ومهتما بما يحدث ويدلي برأيه ساعة ما يتطلب الأمر والواجب ذلك، سنتطرق في بحثنا هذا لأهم الجوانب المهمة التي تناولها العلامة بالنقد والتحليل وأحيانا بطرح البديل.

من القضايا التي شغلت بال الإبراهيمي نذكر:

3-1 الدفاع عن الإسلام والتحذير من النصرانية:

إنّ المتتبع للأحداث يجد أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر حرص على محو القيم الدينية في نفوس المجتمع الجزائري، كما سعى إلى تطويق الإسلام في البلاد "فتصريحات بعض قادة الحملة الفرنسية تبين الخلفية الدينية لسياسة التوسع الاستعماري؛ فهي حسبهم معركة الصليب مع الهلال، والإنجيل مع القرآن، عندما تم سحق جيش الداوي ووقع اتفاق الاستسلام كان أول ما فعله الفرنسيون في الأيام الأولى هو أنهم علقوا الصليب على ثلاث مآذن في مدينة الجزائر، وأقاموا في ساحة القصبّة احتفالا دينيا ضخما احتفاء بسقوط جلادة المسيحية"⁽¹²⁾ لم يستطع قادة الحملات العسكرية إخفاء حقدهم الدفين على الدين الإسلامي لذلك أول ما تم فعله بعد أن دخلوا الجزائر هو تحويل المساجد إلى كنائس وكاتدرائيات ورفع الصليب على المآذن، في رسالة رمزية صريحة حول نية المستعمر في التبشير المسيحي ومحاربة الإسلام في الجزائر، كانت فرنسا ترى أن: "الجزائريون يُعتبرون فرنسيين من دون مواطنة مع عدم مساواتهم مع الفرنسيين، بدأ تطبيق القرار عام 1865 وكان يجب على

الجزائريين من أجل اكتساب المواطنة التخلي عن أحوالهم المدنية والإسلامية ولم يفعل ذلك سوى حفنة منهم⁽¹³⁾ لم يرض الجزائريون بالامتيازات التي قدمتها فرنسا في سبيل التخلي عن الأحوال الشخصية والدين الإسلامي نتيجة يقينهم بأنهما من سماته الشخصية التي لا تقبل المقايضة ولا التنازل.

يقول البشير الإبراهيمي في مقاله 'الأديان الثلاثة' بأن المحتل: "وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتَهك حرَماته من أول يوم؛ فابتز أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشديد، كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد وتقور بالانتقام، احتضن المُستَدمر اليهودية، وحَمَى أهلها، وأشركهم في السيادة، ليؤلبها مع المسيحية على حرب الإسلام، ويجندها في الكتائب المغيرة عليه"⁽¹⁴⁾ كان رجال الدين المسيحي والقساوسة في مقدمة الوفود ضمن الحركة الاستعمارية، فأخذ يُترصد للإسلام ويُستولى على معابده وأوقافه وهدم جزء آخر منها، كان المسيحيون يتعاونون مع اليهود في حربهم إذ منحوهم الامتيازات وشاركوهم الحكم والتسيير وشكلا معا حلفا استعماريا ناقما يستهدف المسلمين الجزائريين.

اتبعت فرنسا سياسةً منافيةً للمبادئ الدينية والأخلاق الإنسانية "لقد تعاملت السلطة الاستعمارية مع المسألة الدينية في البداية بمنطق ما سماه مايكل ويليس سياسة كبت الإسلام ومظاهره باعتبارها جزءاً طبيعياً ومتمماً لعملية الضم التي تعرضت لها الجزائر، وترجم ذلك من خلال إغلاق وتهديم المساجد، ومصادرة الأموال والأماكن الوقفية، وتجريف الجبانات وغلق الزوايا ومنع ممارسة الإسلام وتعليمه بغلق مدارس التعليم القرآني، وطرد الأئمة والمفتين (...). لكن عندما اقتنعت الإدارة الفرنسية باستحالة اقتلاع الإسلام من جذوره رغم هذه الممارسات عمدت إلى التحكم الرسمي في الإسلام، وذلك بإضعافه من خلال إيجاد رجال دين مسلمين مدربين في مدارسها يمكن من خلالها التحكم بالتعاليم الإسلامية في المساجد"⁽¹⁵⁾ قام المستعمر الفرنسي بادئ الأمر بحصر المد الإسلامي ومحاولة القضاء عليه عبر التعامل مع الجزء المادي منه كالمساجد، والزوايا، والمدارس القرآنية والأوقاف (...). إلا أن الأمر لم يحقق الغاية المرجوة، مما اضطرهم إلى تبديل السياسة المنتهجة وهي التحكم فيه من خلال عملاء يعملون بحسب ما تمليه عليهم الإدارة الفرنسية، تم نشر أئمة ومفتين ومعلمين (...) في المساجد ودور العلم، يخدمون سياسة المستعمر ويُكيفون الدين على حساب مطالبه وأوامره، عين المستعمر كما يقول مالك بن نبي: "إمام جاسوس خؤون، ومفت فاسد مُفسد، وقاض منافق مُرتشٍ: وغاية الاستعمار من ذلك كله أن يجعل من الإسلام صورة عجيبة من حياة أصحابه المستعمرين"⁽¹⁶⁾ استحدث المستعمر ديناً جديداً من خلال رجال يعملون على تسييسه ويخضعونه على حسب رغبة السلطات الاستعمارية، إن تولية القيادة لمفسدين غير أكفاء ومُخبرين نغص على المجتمع الجزائري دينه وحياته الاجتماعية.

بعدما كانت هناك ألقاب ومناصب من مثل شيخ الإسلام والمفتي والإمام ومعلم القرآن، أبقى المحتل على المفتي كأعلى رتبة لكن شكلاً فقط؛ إن المفتي رتبة تتمتع بمهابة عالية وسلطة قرار ونهي عند المسلمين نظراً لما يتصف به من أخلاق ونزاهة وعلوم لغوية وتضلع في الدين، لكن في الفترة الاستعمارية كان لقب المفتي شكلياً فقط، حسب رأيهم هو "مجرد رجل ديانة يحمل اللقب شرفياً فقط، وهو لقب أعطته فرنسا للذي تختاره عادة من بين الأئمة البارزين ويقول السيد لويس رين: (إن لقب المفتي في البلاد الإسلامية يتجاوز لقب القاضي، لكنه في الجزائر مجرد لقب شرفي)"⁽¹⁷⁾ يهدف كل هذا إلى جعل ما أقر به "لوشاتلييه سنة 1910 عندما قال «إن فرنسا قد اصطنعت في الجزائر إسلاماً فريداً خاصاً بها كما اصطنعت له رجالاً من نوع خاص، وكل هذا الاصطناع جاء

عن طريق اضطهاد المؤسسات الإسلامية وخلال ثمانين سنة اضطعننا إسلاما فذا في العالم، بدون أوقاف، وبمساجد إدارية وأهل دين ورعين Dévots Resassés وقضاة موظفين، وحج برخصة (...)»⁽¹⁸⁾ هذا التصديق بجعل الدين خاضعا وخادما للمستعمر عبر مؤسساته الإدارية وأشخاص غير أكفاء موظفين شكلا فقط، اضطعن أشباه متدينين مشوشين حول حقيقة الإسلام وعمقه ومداه بل عجزوا عن إدراك حقيقة واجب الدفاع عن الوطن ودحر المستعمر في وقت من الأوقات.

يتساءل البشير الإبراهيمي ويجب عن رفض الكولون الفرنسي للإسلام فيقول: "ما الذي ألب على الإسلام هذه القوات المتظاهرة؟ وما الذي جمع على حربه تلك القلوب المتنافرة؟ إنه - بلا شك - الخشية من قوته الروحية الرهيبة أن تتبع كره أخرى فتصنع الأعاجيب، وتغير وجه الدنيا كما غيرته قبل ثلاثة عشر قرنا، وإن الدين الذي يطوي المناهل بلا سائق ولا حاد، ويقتحم المجاهل بلا دليل ولا هاد، وينتشر بين أقوام عاكفين على أصنامهم، أو مغرورين بأوهامهم - لا يمدده ركاز، ولا يسنده عكاز - لحقيق أن يخشى منه، وأن تمتلئ من رهبته قلوب ذئاب البشرية رعبا، ولو أن للدعوة المحمدية عشر ما للدعوة المسيحية من أسناد وأمداد، وهمم راعية، وألسنة داعية، لغمر المشرقين، وعمر القطبين، ولو أن دينا لقي من الأذى والمقاومة شر ما لقي الإسلام لتلاشى واندثر، ولم تبق له عين ولا أثر"⁽¹⁹⁾ أدرك المستعمر خطورة الإسلام وقوته الروحية في قلوب الجزائريين التي ستدفعهم لمقاومته والجهاد في سبيل الله فأعلنوا عليه العدا، غير أن قدر الله نافذ فقد خرج من البلاد من قلبه عامر بالإيمان ويصدح بصوت الحق، حارب المستعمر ووقف في وجهه -أبى أن تنتهك محارم الله في أرض إسلام- وهذا من تمام فضل الله على الإسلام وأهله.

جعل المحتل الجزائر أرض صراع بين الإسلام ويمثله الشعب الجزائري وبين المسيحية ممثلة في فرنسا التي "من ورائها الاستعمار بخيله ورجله، وجيوشه، ومدافعه، وقوانينه، وأمواله، وجرائده، يحمي حماها، وينافح عنها، والحكومة برجالها، وأدواتها، ووسائلها، تمددها بالعون، وتبذل لها المساعدة والتشيط، وتمهد لها سبل العمل، وتوسع لها في مجال الحرية لبث دعايتها التبشيرية إلى أقصى حد، ومن ثم فهي تؤسس مراكز التبشير، وتعمرها بالدعاة والأطباء والمعلمين، وتجهزها بكل وسائل الإغراء والإغواء، وتغتتم المجاعات والأوبئة فرضا لاصطياد الجوع واليتامى والمرضى لتلفتهم عن دينهم بلقمة أو ثوب أو جرعة دواء (...) "⁽²⁰⁾ رغم ما سخره المستعمر من تخطيط وإمداد، تارة بقوة السلاح عن طريق الجند والعتاد، وتارة أخرى بالمسايسة عن طريق المساعدة أو اللقمة واللباس التي كان العامة في حاجتها بعد سياسة التجهيل والتجريح المفروضة، بيد أنه لم يحقق غايته في التبشير.

نستشهد بواحد من أهم المبشرين وهو الكاردينال لافيغري الذي قام بجهود حثيثة في هذا المجال "أنشأ ملاجئ للأيتام والفقراء، وتجاوزت جهوده العمل الفردي إلى تكوين عمل تبشيري جماعي ومؤسسي، من ذلك تكوينه مؤسسة القديس أوغسطين Saint Augustain ومؤسسات جمعية الآباء البيض Les Peres Blancs والأخوات البيض Les Sours blanches، وجمعية الإخوة المسلحين في الصحراء Les freresarmes du Sahara، وهي مؤسسات صار لها قبل نهاية القرن مراكز في زواوة وورقلة والمنبعة وميزاب (...) غير أن أهم منطقة تركز فيها هذا النشاط التبشيري وبشكل مكثف هي منطقة القبائل لاعتبارات عديدة حاول الترويج لها أنصار ما أطلق عليه أجيريون الخرافة القبائلية Le Mythe Kabyle، منها أن السكان البربر الذين يسكنون هذا الإقليم هم مجموعة إثنية متميزة، وأنهم من حيث الأصول غالليون ورومان، وأنهم معادون بطبيعتهم للعرب، وأن إسلامهم إسلام شكلي وسطحي وأن عقيدتهم الأصلية هي المسيحية، وبالتالي ينبغي العمل على استرجاعها، وهكذا لم ينته القرن 19

حتى بلغ عدد الكنائس بهذه المنطقة وحدها 30 كنيسة و 17 مدرسة تبشيرية يدرس بها 2158 طفلا يعلمهم 34 راهبا و 50 راهبة من جمعية الآباء والأخوات البيض⁽²¹⁾ يتجلى من خلال هذا المثال جهود رجال الدين النصراني بوضوح في عملية التبشير، علاوة على الجهود الفردية، تكونت مؤسسات وجمعيات تبشيرية جماعية منظمة وممنهجة - ما ذكر سابقاً خير دليل على ذلك- إن الترويج للنزعات الانقسامية عمد له عملاء أمثال 'جماعة أجبيرون الخرافة القبائلية' الذين كانت مهمتهم تزييف التاريخ وصناعة موالين للمستعمر، عمدت فرنسا إلى سياسة التفرقة وسخرت لها من يخدمون مصالحها ويضمنون اتباعها، فقد تم الترويج لفكرة الأصول الرومانية والغالية لسكان القبائل من أجل إحداث شقاق وفرقة بين القبائل وباقي الأعراق والأجناس الأخرى، إذ انطلت الحيلة على بعضهم، فأخذوا يتعصبون لأصول حاكت فرنسا خيوطها، يتجلى من خلال هذا المثال كيف ساعد الخطاب الكولونيالي الزائف على تحقيق أهداف الاستعمار وبسط نفوذه، في حين أن آخرين استطاعوا كشف زيف الخطاب الكولونيالي وحقيقته التي كان هدفها ضرب الهوية الجزائرية والروابط المشتركة للأمة.

لخص الباحث عبد القادر معمر الدين مجموعة أسباب جعلت من المبشرين يخصصون منطقة القبائل بالتبشير على غيرها من مناطق الجزائر وهي "كالتالي:

أ- عزل هذه المنطقة عن باقي مناطق الجزائر بغرض تفكيك وحدة الشعب وإضعاف قوته على المقاومة والثورة الشعبية.

ب- تشكيكهم في هويتهم التاريخية والثقافية والوطنية.

ج- القضاء على الدين الإسلامي واللغة العربية بصفة نهائية في هذه المنطقة.

د- تكوين نخب موالية لفرنسا لغة ودينا وثقافة لتكون عوناً للاحتلال على أبناء وطنها.

هـ- تغذية النزعات الإثنية لخلق الصراعات والانقسامات الداخلية بين أبناء الشعب الواحد.⁽²²⁾ مثلت هذه النقاط هدف فرنسا المبطن من أجل زعزعة الوحدة الوطنية وكسر المقاومة وأيضاً إخماد الثورة التحريرية، تنبه لهذا المكر البعض من السكان المتشبعين بالهوية والثقافة الوطنية وانطلت الحيلة على البعض الآخر وساروا طوعاً لإنجاح مخططاتها.

يقول الإبراهيمي في موضع آخر "جاء الإسلام إلى هذا الشمال فوجد من اليهودية عرقاً ناشزاً منتبهاً، ومن النصرانية عرقاً سائساً نخراً، فقضى عليهما بسماحه، ولم يقض على أهلها لسماحته، وأعانه على ذلك بعدهما عن الفطرة، وخرج مدخلهما إلى النفوس، فاليهودية دين لا يدخل إلا في النفوس الفارغة أو التي أجمت الوثنية، فهي تتطلب ما يسد الفراغ أو يدفع الملل، زيادة عن كونها لم تصحبها دعاية ولا إقناع. والنصرانية دخلت هذا الوطن في ركاب الغزاة الرومانيين وفي ظل سيوفهم، بعيداً عن روحانياتها السامية، مصطبغة بالعنجهية الرومانية والعنق الروماني⁽²³⁾ يؤكد الإبراهيمي على أثر الإسلام في نفوس معتنقيه لمواءمة الفطرة فيهم ولسماحة تعاليمه، هذا ما لم يكن في اليهودية التي حرفت بالوثنية والنصرانية التي رفع لواءها الرومان الغزاة بسيوفهم، إن سماحة الدين الإسلامي خاطبت قلوب وعقول معتنقيه فتتمكن منهم وغلب غيره فيهم.

3-2- الحث على التعليم والتحلي بصفات طالب العلم:

طلاب العلم جند وحماة الوطن يجب أن يكونوا أكفاء لأنهم الخط الأول في مواجهة الغزو الفكري والأصل في عملية الإصلاح، يترصدون العدو ويقومون بواجب الدفاع عن الوطن وأهله ويفشلون مخططاته، أدركت فرنسا أهمية التعليم "فجاءت بالمعلم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، ويلقي الاضطراب في أفكارهم،

ويشير لهم عن لغتهم وآدابهم، ويشوه لهم تاريخهم، ويقلل سلفهم في أعينهم، ويزهدهم في دينهم ونبيلهم، ويعلمهم - بعد ذلك - تعليماً ناقصاً: شر من الجهل⁽²⁴⁾ أخذ المحتل بتطويق أركان العملية التعليمية وإفسادها، عن طريق نخر العقول ووضع معلمين موالين لفرنسا يسهرون على تنفيذ مقرراتها ومناهجها لإفساد المواطن الجزائري فيفقد القدرة على التمييز ولا يصل لدرجة الوعي التي يرفع فيها القضية الوطنية المصيرية.

ضرب الإبراهيمي مثلاً عن الأجداد في رحلتهم لطلب العلم فقال: "كانوا يقطعون البراري والصحاري والقفار، ويلقون في سبيله المعاطب والأخطار، وكانوا يجوعون في سبيله ويعرون، ويظمؤون ويضحون، لا يشتكون الفاقة والنصب، ولا يعدون الراحة إلا للتعب (...). كانوا يقيدون وأنتم لا تقيدون، وكانوا ينسخون الأصول بأيديهم ويضبطونها بالعرض والمقابلة حرفاً وحرفاً وكلمة وكلمة، وأنتم أراحتكم المطابع، ويسرت لكم الكتب (...)"⁽²⁵⁾ كان السابقون حينما يطلبون العلم يعدّون له العدة ويكابدون مشاق السفر لأجل تحصيله، لا يضيعون الوقت ولا يشتكون الأهوال والأخطار بل كلهم إصرار وعزم على بلوغ الهدف، يكتبون بأيديهم ما يتعلمون ويحرصون على الدقة في النقل وعلى الأصيل من الكتب والمفيد منها أما جيل الأحفاد فغلب عليه الكسل، يكتبون بما يقدم لهم من مطبوعات لا يحبون إجهاد أنفسهم بالكتابة ولا بالتفكير البناء، استحوذ عليهم الكسل والانكباب على الكتب الميسرة التي تعالج الأفكار بسطحية دون عمق ولا رؤية نقدية، ما سيؤدي بالضرورة إلى نتائج تنعكس على التكوين والتحصين الفردي وعلى النهوض بالمجتمع ومستقبل الأمة، وهنا دعوة للاقتداء بالأجداد والأفذاذ في طلب العلم.

حذر الإبراهيمي من عدم الاتصاف بمواصفات طالب العلم فقال: "اتركوا المناقشات الحزبية والخلافات السياسية لأهلها، المضطّلعين بها، المنقطعين لها، ودعوا كل قافلة تسير في طريقها، وكل حامل لأمانة من أمانات الوطن مضطّلاً بحملها، قائماً بعهده فيها، حتى تنتهي تلك الأمانات بطبيعتها إلى جيلكم، فتأخذوها بقوة واستحقاق؛ واعلموا أن كل من يدعوكم إلى ذلك إنما يدعوكم ليضلّكم عن سبيل العلم فهو مضل، وكل مضل مضر، أو ليتكثر بكم فهو غاش، وكل غاش ممقوت، أو ليلهيكم بما لا تحسنون عما تحسنون، فالحذر الحذر! فإن الوطن يرجو أن يبني بكم جيلاً قوياً الأثر، شديد العزائم، شديد الآراء، متين العلم، متماسك الأجزاء، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة في الآراء"⁽²⁶⁾ إن أكثر ما يضرّ طالب العلم ويثنيه عن هدفه هو الاهتمام بالسياسة والجدال بغير علم، فيضيع وقته وعلمه ويزيد الوضع سوءاً، لذلك أمر الإبراهيمي بترك هذا الأمر لأهله والتركيز على الأهمّ ألا وهو تحصيل العلوم مع مراعاة التخصص وعدم الخوض في ما يذهب وقار طالب العلم، إن الخوض في السياسة لغير المختصين فيها يؤدي إلى فوضى وصراعات وشقاق، فطلاب العلم يحملون أعظم مسؤولية وتركيزهم يكون على تحصيل العلم أولاً ثم استعماله ثانياً - أي تفعيله وإفادة المجتمع به - بعدها تكون السياسة آخر همه إلا المختصين فيها فهي شغلهم الشاغل وهم أحق بسياسة البلاد من غيرهم.

أشاد الإبراهيمي باستعداد الفرد الجزائري لطلب العلم والإبحار فيه فقال: "إننا أمة علم ودين، لم ينقطع سندنا فيهما إلى آبائنا الأولين، وإننا أمة شكران لا أمة نكران، فلو أن المعلم الذي جاءتنا به فرنسا علم ناصحاً، ورعى مخلصاً، وثقف مستقلاً، وبث العلم لوجه العلم، ونشر المعرفة تعميماً للمعرفة، وزرع الأخوة الصادقة في سبيل الإنسانية الكاملة، ولم يقيد الاستعمار ببرامجه، ولا سيره على مناهجه، لظهرت آثاره الطيبة في الأمة، ولأنطقنا تلك الآثار بالاعتراف والثناء بالجميل، ولكنه علم متحيزاً إلى فئة، وأورد على غير مشربنا، وغرس في نفوس أبنائنا التكرار لماضيهم، والتسفيه لتاريخهم، والنسيان للغتهم ودينهم"⁽²⁷⁾ كان الجزائريون من قبل الاستعمار أمة شرع وعلم يسودها الخلق الحسن وتشكر جميل كل من يقدم المعروف، إلا أن فرنسا ليست من يستحق الشكر

والتقدير لعدة أسباب منها: أنها لا تريد نشر العلم والمعرفة إلا ما اقتصر على فئة معينة من المستوطنين أو العملاء وفق برامج مسطرة آنفا وبرامج معدة وفق ايدولوجية ليبرالية، أما عامة الشعب فكانت تشككهم في الثوابت وتزعزع القيم فيهم وتهدم تاريخهم، تضرب اللغة الواحدة وتضلّهم عن دين خاتم النبيين، كان قولها فظيع وفعلها شنيع، ولو كانت تريد الحسن للجزائر لأثمرت الجهود وظهر الخير في سياستها المنتهجة، لكن أضمرت الشر وأرادت تكوين أجيال من الأحفاد يعادون الأجداد ويتكبرون لهم بغية ضمان بقائها بالموالاة ورعاية مصالحها.

يُوصي الإبراهيمي طلبة العلم فيقول: "لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كلّ؛ إنّ العلم لا يعطي القيادة إلا لمن مهره السهاد، وصرف إليه أعتة الاجتهاد. لا تعتمدوا على حلق الدروس وحدها، واعتمدوا معها على حلق المذاكرة، إنّ المذاكرة لقاح العلم، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدرس بالمذاكرة في ذلك الدرس، إنكم إن تفعلوا تفتح لكم أبواب من العلم، وتلج لكم آفاق واسعة من الفهم، لا تقنعوا بالكتاب المقرر، وقرأوا غيره من الكتب السهلة المبسطة في ذلك العلم، تستحكم الملكة ويتسع الإدراك"⁽²⁸⁾ نلاحظ في هذا المقطع أن العلامة طالب المتعلم بأن يكون مجدا ومثابرا، لا يكتفي بما يأخذه من معلمه والمقررات الدراسية فقط، بل يجب أن يكون متسلحا بحب الاطلاع والاستكشاف ملما بجميع العلوم على اختلاف مشاربها وخاصة أمهات الكتب وأصولها، فالمذاكرة زاد للمتعلم وبالمواظبة تترسخ المعرفة التي تتفق إلى عمل والعلم ينعكس على أهله قوة ومهابة.

حرص الإبراهيمي بعد انتخابه رئيسا لجمعية العلماء المسلمين سنة 1940 على تعليم أبناء الجزائر، فيقول في معرض حديثه "أسست في سنة وبعض السنة نحو سبعين مدرسة عربية حرة متفرقة في جهات القطر بمال الأمة، وقد وصل عدد المدارس الابتدائية الحرة التي أسستها الجمعية بسعيي وإشرافي وبمال الأمة الخالص نحو مائة وخمسين مدرسة منها الضخم الفخم ومنها دون ذلك وتحتوي هذه المدارس على نحو خمسين ألف تلميذ وعلى نحو أربعمئة معلم، يتوجها معهد ثانوي فخم يأوي نحو ألف تلميذ، وهو بجميع مرافقه ملك للأمة"⁽²⁹⁾ فالتعليم زاد المتعلم وسلاح الفرد ومستقبل الأمة وإن الاستثمار فيه وفي طلبته من أعظم ما يمكن أن يعود على البلاد والعباد بالخير والنفع، لما لاحظ الإبراهيمي الاستعداد النفسي والاقبال على التعلم شرع في بناء المدارس ووضع برامج مدروسة بأيدي جزائرية ومعلمين متشبعين بالعقيدة والهوية الوطنية يسهرون على تحقيق الهدف المسطر؛ ردا على المناهج والبرامج الكولونيالية الصانعة للتبعية ومعلمي المستعمر القائمين على سياسة الإدماج، وقد كانت ميزانية الإنفاق من مال الأمة وتبرعات المحسنين.

3-3- التحذير من خطر سكوت العلماء وعاقبة فسادهم:

استشعر الإبراهيمي مكانة العلماء ودورهم في ردع المستعمر والمكائد الخارجية وكذا سلطانهم على نفس الشعب الجزائري، فهو يرى أن العالم "تخضع له العامة عن طوعية ورغبة، خضوعا فطريا لا تكلف فيه، لشعورها بأنهم المرجع في بيان الدين، وبأنهم لسانه المعبر حقا عن حقائقه، والمبين لشرائعه، وبأنهم حراسه المؤتمنون على بقاءه، وبأنهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوة، وكان العلماء يجمعون بين وظيفة التبیین في التعدييات، وبين وظيفة التقنين في المعاملات؛ أما الخلفاء فلم تكن وظيفتهم -في الحقيقة- إلا التنفيذ لما يراه العلماء من مصلحة في المعاملات الفردية أو الاجتماعية. فكان سلطانهم نافذا حتى على الخلفاء، وأسنتهم مبسطة بالنقد والتجريح لكل من زاغ عن صراط الدين كائنا من كان؛ وكان رأيهم هو المرجع في مصالح الدين والدنيا"⁽³⁰⁾ تميل النفس لكلام الله وأحكامه فهو يتماشى مع الفطرة السليمة لذلك يخضع المسلم لكلام العلماء الحقيقيين ورثة النبوة العازمين على

تحقيق شرع الله، يهرعُ لهم العامة في كل صغيرة وكبيرة حول أحكام الله وحدوده، فكان الحكام والسلاطين يدنونهم منهم ولا يقضون أمراً إلا بعد استشارتهم لأنهم يصدحون بصوت الحق، يُراعون المصلحة العامة ولا يؤيدون الباطل، لذلك كانت كلمتهم مسموعة وأوامرهم مطاعة، بقيت سلطة العلماء وعزهم ما بقوا على طريق الحق يهدون له ويحاربون الباطل وأهله لا يتساهلون مع صغيرة ولا يقبلون كبيرة، مرجعهم كتاب الله وسنة نبيه عليه أفضل صلاة وأزكى سلام، يحاجون بالدليل ويثرون على الشبهات، يُفتون بما يخدم الأمة ومصلحتها العامة، فتصبح متماسكة موحدة يوحدوها الدين فتتلاحم ويجمعها المصير المشترك فتتكاتف.

لكن "لم يزلُ أمراء السوء يكيدون للعلماء حتى زحزحوهم -مع تطاول الزمن- عن مكان القيادة الروحية للأمة، وصرفوهم عنها، واستبدلوا بهم في استمالة الدهماء والعامة قادة لبسوا لبوس الدين ليُغروا باسمه، وزهدوا في العلم إذ ليسوا من أهله، واستمدوا قوتهم من قوة الأمراء؛ وتقايس الفريقان الشهادات بالتركية والتراضي على المنافع والسكوت عن المنكر؛ هؤلاء يضلونها، وهؤلاء يذلونها، والإضلال في الدين وسيلة الإذلال في الدنيا (...). لا يقربونها إلى الله إلا بما يبعدها عنه من بدع ومحدثات؛ والعلماء في هذه المرحلة غافلون يغطون في نومة أربت في الطول عن نومة أصحاب الكهف والرقيم، إلى أن فتحوا أعينهم على دين غير الدين، فشبّه لهم؛ وأصبحوا تابعين، بعد أن كانوا متبوعين"⁽³¹⁾ ضاعت هيبة العلماء وسلطانهم بعدما تملكهم الخوف وضعفت أنفسهم أمام المنصب والمال الذي كان يُقدم من طرف الحكام الفاسدين مقابل التضليل والسكوت عن المنكر، صار دورهم إخضاع العامة وتوهمهم باسم الدين، فأخذوا يقبحون العلم وينشرون البدع ويفرقون بين الناس، يُبعدون عن طريق الله ويغطون في نوم عميق، فقدوا الوفاق ولبسوا الذلّ والحقد "ما ظلم الله العلماء، ولكن ظلموا أنفسهم، ولم يشكروا نعمة العلم، فسلبهم الله ثمراته من العزة والسيادة، والإمامة والقيادة؛ وكان لخلو ميدان السلطة والأمر منهم أثر فاتك في عقائد المسلمين وأخلاقهم؛ وكان من نتائجه إلقاء الأمة بالمقادة إلى من يضل ولا يهدي من المشعوذين الدجالين. فأضلّوها عن سواء السبيل، ومكّنوا فيها للداء الوبيل، وأعضلُ أنواعه الاستعمار، الذي وجد منهم مطايا ذللاً سماحا إلى غاياته الخبيثة في الإسلام والمسلمين(...)"⁽³²⁾ تقول الحكمة (من كان في نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر)، عندما تخلص العلماء عن دورهم العظيم في الإصلاح والأمر بالمعروف، سلبهم الله العز والقيادة، وانعكس ذلك على الأمة فأصبحت مُنقادة وسلط الله عليهم عدوا يسومهم سوء العذاب، فوجد الاستعمار والأعداء ضالّتهم وأخذوا يعيثون في الأرض الفساد وكانوا للشعب جلادا ولو كانوا غير ذلك لاختلف الأمر.

شخص الإبراهيمي واقع العلماء في الجزائر مع ابن باديس ولم يخف عليهما أن "البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه ويفسدان عليه دينه ودنياه استعمار مادي وهو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثله مشائخ الطرق المؤثرين في الشعب والمتغلغلين في جميع أوساطه المتاجرين باسم الدين المتعاونين مع الاستعمار عن رضى وطوعية، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد خوفا من الله بزعمه، والاستعماران متعاضان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، ومظهرهما معا تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة"³³ لم يكن الاستعمار الثاني أقلّ خطراً من الأول فقد كانوا يده التي تُسكت وعملاءه الذين نخروا العقول وغلطوا العامة، فكانت هذه الفئة الأخيرة تخدم عدو الوطن على حساب الشعب الجزائري وتضمن تجهيل العامة وتضليلها، تغتال أي شكل من أشكال المقاومة وتشي متفقيها الرافضين للمستعمر كي يتم وأد الوعي في مراحل الأولى، فيسرّع

العدو باكتشاف ومعاقبة من تسول له نفسه التمرد عليه وعلى سياسته، وقد كان الإبراهيمي عازما على فضح أفكار هذه الطائفة ودحض أساليبها.

3-4- الدفاع عن اللغة العربية وفضح سياسة المستعمر اتجاهها:

اللغة العربية هي لغة الدين والموحدة للشعب الجزائري لأن الجميع يفهمها في ربوع الوطن، جعلها المستعمر نصب عينيه باستهدافها وإلا ستفشل مخططاته في فرنسا الجزائر، لذلك عمد إلى "إضعاف اللغة العربية، لأنها حاملة للإسلام وثقافته بإبطال وظيفتها الاجتماعية واستبعادها التدريجي من إدارة مختلف مجالات الحياة العامة، فبعد أن كانت هي لغة التعليم والقضاء والتعامل اليومي جرى حصرها في حدود ضيقة هي حدود أداء بعض الشعائر الدينية، ثم عملت الإدارة الاستعمارية على تلهيجها ومزاحمتها باللغات المحلية والدارجة لتحقيق هدف الفرنسية فيما بعد (...) لتتوج في الأخير بقرار وزير المعارف الفرنسي في 08 مارس 1938 الذي اعتبر فيه العربية لغة أجنبية في الجزائر يمنع تعليمها في المدارس"⁽³⁴⁾ زاحمت فرنسا اللغة العربية في كل مكان، ضيقت عليها باستبعادها من الإدارات وفرض التعليم باللغة الفرنسية وتشجيع اللهجات المحلية ودعمها فتقوى النعرات ويتعصب كل فريق للسانته ويرى أنه الأحق بفرضه، هذا ما يؤدي فيما بعد إلى الحقد على اللغة العربية وهي طرف في الصراع، بعدها يُنفذ فخ الفرنسية المهيأة بديلا عنها، يتم مدحها والإشهار لها بأنها لغة ثقافة ورفي وهي في الأصل لغة دخيلة ليست من اللغات الأصلية التي هي محل جدال فتتطلي الخدعة على المتعصبين وبقبولها بديلا، ختاماً للمخطط آخر قرار كان اعتبار اللغة العربية الأصلية في الجزائر هي لغة أجنبية ويمنع تعليمها وبهذا تكون الضربة القاضية، المتتبع لدروس التاريخ يجد أن العدو والمستعمر يفتعل الفتن ويحرض الأعراق واللهجات ليضمن وجوده وإقامته على الأرض المستهدفة، فيُفشل الوحدة ويقضي على المقاومة وأشكالها نحوه.

تشيد جمعية العلماء المسلمين بالعروبة وموقع الجزائر منها، حيث تراها فخر الوطن وحقيقة لا تُدحض "إنّ العروبة جذم بشري من أرسخها عرقاً، وأطيبها عذقاً، عرفه التاريخ باديا وحاضرا، وعرف فيه الحكمة والنبوة، وعرفته الفطرة لأول عهودها فتبته صغيرا وحالفته كبيرا، إن العربية هي لسان العروبة، الناطق بأمجادها، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكل مدع للعروبة فشاهده لسانه، وكل معتزّ بالعروبة فهو ذليل، إلا أن تمدّه هذه المضغة اللينة بالنصر والتأييد؛ فلينظر أدياء العروبة، الذين لا يديرون أسنتهم على بيانها، ولا يديرون أفكارهم على حكمتها، في أي منزلة يضعون أنفسهم"⁽³⁵⁾ فالعربية من أعذب وأنقى اللغات، تاريخها حافل وجذورها قديمة قدم التاريخ، بين ثناياها مفاخر وأمجاد الأمة المسلمة، من يجيدها تعزّه ومن كان من بنينا ولا يعرف منزلتها يُذلّ لغيرها إلا أن يجيدها وينطق لسانه بها ويستقي حكمتها، كفاها شرفا أنها لغة القرآن والسنة المشرفة.

يرى البشير الإبراهيمي في مقاله "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرّة، ليس لها ضرّة" أن "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حمايتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل؛ ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الأفريقي إقامة الأبد وضرب بجدرانها فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتتساخ في الألسنة واللهوات، وتتساب بين الشفاه والأفواه"⁽³⁶⁾ يتضح من خلال هذه المحطات التاريخية السريعة، كيفية دخول العربية لشمال إفريقيا مع الفاتحين والإسلام وكيف تمكنت من نفوس السكان

الأصليين فأصبحت في دارها وبين حمايتها تنساب في الألسن والشفاه "يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يُتلى، وأن الصلوات بها تبدأ وتُختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها، وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معا، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته؛ وعرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون (...) وزاحمت البربرية على السنة البربر فغلبت وبرزت، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار. وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا. وإنما هو راحة من الهم الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجزر الروماني البغيض" (37) إضافة إلى أن اللغة العربية لغة دين وعبادة فهي لغة علم وفكر، دُون بها الشعر والأدب والفلسفة وبها عرف البربر علوم المسلمين، فزاحمت البربرية على ألسنتهم وغلبت لسحرها وهو اختيار حُب فيها وقناعة، لا يد فيه للجبر أو القهر، فقد كان الفتح الإسلامي رحمة وإنصافا للبربر من الاحتلال الروماني الذي عاث فيهم فسادا.

كان اعتناق الإسلام وحب العربية رد فعل طبيعي لذلك "إذ رضي البربري لنفسه الإسلام طوعا بلا إكراه، ورضي للسان العربية عفوا بلا استكراه، واللغة البربرية إذا تنازلت عن موضعها من السنة ذويها للعربية لأنها لسان العلم وآلة المصلحة، فإن كل ما يزعمه المبطلون بعد ذلك فضول. إن العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب، ولكنه خضوع الأخوة، لا خضوع القوة، وتسليم الاحترام، لا تسليم الاجترام. والعلم هو الذي طوع البربرية للعربية، ولكنه تطويع البهرج للجيدة، لا طاعة الأمة للسيدة. لتلك الروحانية في الإسلام، ولذلك الجمال في اللغة العربية، أصبح الإسلام في عهد قريب صبغة الوطن التي لا تتصل ولا تحول" (38) رحب البربر بالأخلاق الإسلامية واللغة العربية وسادت الأخوة والاحترام بينهما وجمعهما حب الوطن واستعمال العربية حتى وصول المستعمر الذي أخذ يكدل للأشقاء ويفتعل الفتن، تظن الإبراهيمي لسياسة التفرقة التي حاك خيوطها المستعمر الذي أراد أن يضرب العرب بالبربر عن طريق اللغة وذلك بتوفير مترجم للقبائلية بقاعة المجلس الجزائري في مقابل مترجم للعربية، تساءل الإبراهيمي "أكل هذا إنصاف للقبائلية، وإكرام لأهلها، واعتراف بحقها في الحياة، وبأصالتها في الوطن؟ كلا إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة، ومكر استعماري بطائفة أخرى، وتفرقة شنيعة بينهما، وسخرية عميقة بهما" (39) هذه الإجابة اختصرت وأعرت الخطاب الكولونيالي لأن فرنسا لم تفعل ذلك حبا في اللهجة القبائلية وإنما مزاحمة للعربية ونشر للعصبية عبر وتر العرقية، من أجل التفرقة والقضاء على الوحدة الوطنية والمقاومة وأيضا في سخرية واضحة من المستعمر باللغتين لإخلاء الساحة للغة الفرنسية كي يُستبدل بها لسان الجزائريين، يرى الإبراهيمي أن المغزى واضح هو "إسكات نغمة تنطق بالحق وتقول: إن هذا الوطن عربي، فيجب أن تكون لغته العربية رسمية. فجاءت تلك النغمات الشاذة ردا على هذه النغمة المطردة، ونقضا لها وتشويشا عليها، ولتلقى في الأذهان أن هذا الوطن مجموع أجناس ولغات لا ترجح إحداها على الأخرى، فلا تستحق إحداها أن تكون رسمية. لا يوجد قبائلي يسكن الحواضر إلا وهو يفهم عن الفرنسية. ولا يوجد في قبائل القرى - وهم السواد الأعظم - إلا قليل ممن لا يحسن إلا القبائلية؛ ولكن ذلك السواد الأعظم لا يملك جهاز راديو واحدا لأنهم محرومون من النور الكهربائي كما هم محرومون من نور العلم، وكل ذلك من فضل الاستعمار عليهم. فما معنى التدجيل على القبائل بلغتهم؟ ولا يوجد عضو قبائلي في المجلس الجزائري إلا وهو يحسن الفرنسية، فما معنى

اقتراح مترجم للقبائلية؟ أما نحن فقد فهمنا المعنى. وأما الحقيقة فهي أن الوطن عربي. وأن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرأونه بالعربية، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلاً. ولكن الظالمين لا يعقلون⁽⁴⁰⁾ يقرّ الإبراهيمي بأنّ الجزائر وطن يضم مجموعة أجناس وأن سكان الحضر من القبائل كلهم يجيدون الفرنسية أما في القرى وهم الأغلبية العظمى لا يحسنون إلا القبائلية لكن لا يملكون أبسط أساسيات الحياة وضرب مثلاً بالنور الكهربائي وهو من أبسط أساسيات العيش - لكنه معدوم في القرى - لماذا إذن يطالبون بمترجم للقبائلية ووضعها ضداً للغة العربية، ليس حبا في القبائلية ولا إكراماً لأهلها وإنما خدمة لسياسة فرنسا في عملية فرنسة الجزائر ومحاربة للغة العربية، كان ردّ الإبراهيمي على الحيلة المفتعلة أن القبائل مسلمون كتابهم القرآن يتعلمونه بالعربية ويحبون دينهم ولا يرضون بديلاً عنهما مهما حاول المستعمر الظالم أن يضلّل أو يُمكر لهذه الحقيقة.

3-5- توعية الشباب والتعويل عليه:

اهتم الإبراهيمي بالشباب ومشاكله كما حرص على النصح لهم وتوجيههم وتحسيسهم بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم اتجاه المجتمع والوطن، جاء في مقال 'من مشاكلنا الاجتماعية الشبان والزواج' أن المجتمع الجزائري يضم صنفين من الشباب وتختلف نظرتهم للزواج؛ الأول يتمثل في فاقد الرغبة في الزواج "أولئك الشبان الذين أركسوا في الدرك الأسفل من الحيوانية، فانطلقوا مع الشهوات، واستمروا التحلل من قيود الدين والعقل، ورأوا أن الزواج قيد لحريتهم البهيمية، فتحالفوا مع الشيطان على بث حباله، فأولئك قوم مجرمون"⁽⁴¹⁾ حيث آثروا المذات وعدم تحمل المسؤولية ورأوا أن الزواج قيد لحريتهم فأصبحت عقولهم مغيبة وأفعالهم غريزية لا تراعي قيوداً ولا ضابطاً أخلاقياً.

أما النوع الثاني "قبيلغون كلما ذكر الزواج في الاحتياط للمستقبل، والاستعداد لتكاليف النسل، ومنهم من يعتذر للعزوبة بأنه لا يجمل به أن يتزوج من الجاهلات الأميات؛ وعذرهم هذا يطوي أشياء يلوحون لها تارة، ويصرحون بها أخرى؛ وقد يزيغ بعضهم الزيغة الكبرى فيتزوج بأجنبية (...). لأن الحضارة الغربية أفسدت أذواقهم، وأزاعت نظرهم إلى الحياة، فجعلت البعض يحتاط للمستقبل احتياطاً مفرطاً، وجعلت البعض يأنف من الفضيلة إذا كانت أمية، ولا يأنف من الرذيلة إذا كانت متعلمة"⁽⁴²⁾ هذا النوع يبالغ في الاحتياط للتكاليف ويطلب بفتاة متعلمة حتى وإن كانت أجنبية أو بعيدة كل البعد عن تعاليم الدين الإسلامي، تشبعت عقولهم بالفكر الغربي وتغيرت مبادئهم فتتركوا لأصولهم وعابوا على الفتاة الجزائرية الأمية المنتشرة آنذاك حتى لو كانت تتحلّى بأخلاق حميدة، وبالتالي فقدت الأسرة الجزائرية هويتها الدينية والثقافية في ظل التأثير بالآخر الأجنبي، حيث برمج هذا النوع من الشباب ليرى بوجهة نظر استعمارية وثقافية مستوردة، كانت عقولهم مشتتة وإرادتهم مسلوكة لصالح عدوهم، إن حققت غاية الزواج لا يتحقق هدف تكوين أسرة جزائرية تُربي الأبناء على الدين الإسلامي والأخلاق الحميدة وثابت الأمة الجزائرية الأصيلة.

يحاول الإبراهيمي أن يحفز على الزواج وعرض بعض فوائده فيقول: "أيها الشبان! إنكم لا تخدمون وطنكم وأمتكم بأشرف من أن تتزوجوا، فيصبح لكم عرض تدافعون عنه، وزوجات تحامون عنهن، وأولاد يوسعون الآمال، هنالك تتدربون على المسؤوليات، وتشعرون بها، وتعظم الحياة في أعينكم، وبذلك تزداد القومية قوة في نفوسكم، إن الزوجة والأولاد حبال تربط الوطني بوطنه، وتزيد في إيمانه، وإن الإعراض عن الزواج فرار من أعظم مسؤولية في الحياة، ولمن تُخدم الأوطان؟ إذا لم يكن ذلك لحماية من على ظهرها من أولاد وحرم، ومن في بطنها من رفات ورمم"⁽⁴³⁾ يراعي المتزوج حرمة الله ويستأمن على أهله ويكون مسؤولاً على أسرته الصغيرة، يستفيد من

دروس الحياة في تسييرها، أفعاله منزنة، مؤهلا لمواجهة الأزمات الكبيرة فيما بعد، كما أنه يتعلق بزوجته وأبنائه الذين هم جزء من وطنه ومعهم يحس طعم الحياة ويستشعرها، يحابي على عرضه ولا يقبل الضيم عليه فيدافع عن وطنه وعلى أعز ما يملك بشجاعة واستماته، لا يتخلّى عن الذين تجمعهم بهم رابطة الدّم والأرض فهم أعلى ما على قلبه وحياتهم من حياته، هذا السنّ هو ربيع العمر إن صلح يصلح ما بعده من العمر ويحقق المجتمع النفع به وبالأجيال التي تليه في البناء والتطور.

وفي الفترة ما بين سنة 1920 إلى غاية 1930 كان برنامج جمعية العلماء يركز على عنصر الشباب، فكان عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي يُعلمان ويحاضران ويلقيان الخطب في أوساط الشباب يُعدان ويهيئان لأعظم غاية وقد كان لهما ذلك يقول الإبراهيمي "لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلح بالخطباء والكتاب والشعراء، يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة يجمعهم كلّهم إيمان واحد، وفكرة واحدة، وحماس متأجج، وغضب حاد على الاستعمار"⁽⁴⁴⁾ صار هناك الآلاف من التلاميذ والشباب الذين شربوا من معين جمعية العلماء المسلمين وروادها، منبتهم العقيدة الصحيحة والهوية الجزائرية، يدركون حقيقة المستعمر الغاشم، ويؤمنون بواجبهم في التصدي له بلا هوادة، ببذل الغالي والنفيس والتضحيات الجسام في سبيل الدين والوطن، يقول الإبراهيمي عن نشاط الجمعية وفضلها: "قد وصل الشعب الجزائري إلى ما وصل إليه بفضل جمعية العلماء، وما بذلناه من جهود في محو الرذائل التي مكن لها الاستعمار، وتثبيت الفضائل التي جاء بها الإسلام، ولو تأخر وجود الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر صوتنا، ولو سلطنا سبيلا غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمة وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر التي بيضت وجه العرب والمسلمين"⁽⁴⁵⁾ حققت جمعية العلماء في سنوات نشاطها قفزة نوعية رغم العراقيل وسياسة العقاب والردع المنتهج من طرف فرنسا ضدها، فكانت صوت المضطهدين وقلم النخبة ومدرسة للثوار من المساهمين في استرجاع السيادة الوطنية وطرد المستعمر.

يتوسم الإبراهيمي أفضل الخصال في الشاب الجزائري، جاء في مقتطف من كلامه "أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخا له، أخوة الدم، وكل مسلم أخا له، أخوة الدين، وكل بشر أخا له، أخوة الإنسانية، ثم يعطي لكل أخوة حقها فضلا وعدلاً. أتمثله حلفَ عمل لا حليف بطلاة، وحلس معمل لا حلس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة لا رائد خيال. أتمثله برّا بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالا، مزورا عن الحضارة التي رمته بقشورها، فأرخت أعصابه، وأنثت شمائله، وخنثت طباعه، وقيدته بخيوط الوهم، ومجّت في نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يذهب الققص من الأسد من بأس وصوله، أتمثله مقبلا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلا على الارتزاق إقبال النمل تجدّ لتجدّ"⁽⁴⁶⁾ هذا المقطع يحمل بعض أهم الصفات التي أمل الشيخ أن تكون في شباب الجزائر من بينها: الإسلام، والعروبة، والإنسانية، والعدالة، وحب الخير(...)، يطلب المعالي وفعله أبلغ من كلامه، يبحث عن الحقيقة، مُطلعا على تاريخه فخورا بأجداده، طالب علم ومعرفة لا ينثني عن بلوغ أهدافه، شبهه بالنحلة التي ترعى من الأزهار، لدوره ومكانته بين أطياف المجتمع، ينفع كل من يجاوره متوكلا على الله، يثابر مثابرة النملة في الارتزاق والنشاط لا يكل ولا يمل.

يتمثله "محمديّ الشمائل، غير صخاب ولا عتاب، ولا مغتاب ولا سباب، عفا عن محارم الخلق ومحارم الخالق، مقصور اللسان إلا عن دعوة إلى الحق، أو صرخة في وجه الباطل، متجاوزا عما يكره من إخوانه، لا

تتطوي أحنأؤه على بغض ولا ضغينة، لم يمسه زيف العقيدة، ولا غشيت عقله شب الخرافات، بل وجد المنهج واضحا فمشى على سوائه، والأعلام منصوبة فسار على هداها، واللواء معقودا فأوى إلى ظله، والطريق معبدا فخطا آمنا من العثار؛ فما بلغ مبلغ الرجال إلا وهو صحيح العقد في الدين، متين الاتصال بالله⁽⁴⁷⁾ يخاف الخالق في محارمه ويمتثل لأوامره، يزن كلامه، بعيدا عن اللغو، خالي الصدر من الحسد والضغائن، يقول الحق ولا يخاف لومة لائم، صحيح العقيدة، قويم المنهج "حتى إذا امتدت الأيدي إلى وطنه بالتخون، واستطالت الأسنة على دينه بالزراية والتنقص، وتهافتت الأفهام على تاريخه بالقلب والتزوير، وتسابق الغرياء إلى كرائمه باللص والتدمير، ثار وفار، وجاء بالبرق والرعد، والعاصفة والصاعقة، وملاً الدنيا فعلا، وكان منه ما يكون من الليث إذا ديس عرينه، أو وسم بالهون عرينه"⁽⁴⁸⁾ يُقاوم العدو ويقتص من الخائن إذا ما مدّ يده على وطنه وشعبه، يردّ البدع والضلالات التي يرمى بها دينه، مُطلعاً على تاريخه ونافيا عنه التزوير، يراه شديد البأس، رجل فعل ومهام لا لغو وكلام.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن أن نجمل القول فيما يلي:

- تدعو خطابات الإبراهيمي إلى محاسن الأخلاق والتمسك بثوابت الأمة الجزائرية من لغة عربية ودين إسلامي، كما توحى بثقافة عالية ووعي حصيف شخصت وضع المجتمع الجزائري ومسيرة كفاحه الإصلاحي ضد المستعمر الذي أراد القضاء على كل ما هو جزائري.
- استمد الإبراهيمي فصاحته وبلاغته من الدين الإسلامي في مقدمته القرآن والسنة وأيضاً من التراث العربي القديم وما يزر به من فنون على رأسها الشعر، حيث عالجت مشاكل متنوعة وقضايا مختلفة، سياسية، واجتماعية، ودينية.
- التعليم مستقبل الأمم والذي يستثمر فيه يملك القوة ويصنع التاريخ، خاصة إذا كانت الفئة المستهدفة شبابا مقبلين على الحياة ومفعمين بالرغبة في التغيير والعمل.
- العلماء ورثة الأنبياء؛ استقامتهم تعود بالخير وانتشار محاسن الأخلاق وتكاثر المجتمع وتقويم الاعوجاج والتبصرة بمآلات الأمور، أما إن كانوا فاسدين سيزيدون من فساد المجتمع وشنح العامة لتنتهي بطبقية وصراعات داخلية وتدخل أيادي أجنبية.
- عرف الإبراهيمي وخطاباته مع جمعية العلماء المسلمين بالقضية الوطنية محليا وعالميا، إضافة إلى جهوده المبذولة في التعليم، خطاباته لها وقعها في شحن هم الشعب الجزائري وتوحيده لمواجهة المستعمر واسترجاع الحرية المسلوبة، وعليه فكانت ردود أفعال الشيخ عقبة أفلت مخططات فرنسا الكولونيالية وحالت دون فرنسة الدولة الجزائرية.
- الدين الإسلامي واللغة العربية أحد أهم مقومات الهوية الجزائرية التي لا بديل عنهما، استهدفهما قديم قدم التاريخ، عن طريق الاستعمار والحملات عسكرية في الماضي أما اليوم فالطريقة تختلف لأنه يتم اعتماد الغزو الثقافي والهيمنة الاقتصادية، بيد أن الأهداف والغايات نفسها، وعليه فالمقاومة تأخذ أشكالا ووسائل أخرى تتماشى مع روح العصر أولها الوعي والقدرة على تحليل الخطابات المغرضة ثم التصدي بقرارات ومشاريع واعية.
- تستدعي المقاومة الثقافية والحضارية تكاثف العلماء وتوعية عميقة بالمشكلات المحلية لأن آثارها وتبعاتها تتوارثها الأجيال وإن استحكم داء التعصب للعرق واللهجة أو موالاة للعدو على حساب القيم والمبادئ يظهر

الشقاق وتتبعه الانقسامات فيصعب توحيد الصفوف لمواجهة الدخيل، هذا الأخير سيستفيد من الصراعات الداخلية ويسخرها في خدمة مصالحه.

- القضايا التي عالجتها جمعية العلماء المسلمين بروادها ونخبها تعدّ حجر أساس في بناء الدولة الجزائرية الحديثة تستحق الاهتمام والمراجعة بين الفينة والأخرى لأجل معرفة خط سير المشروع ومدى مطابقته للأهداف المُسطرة بعدما استؤمن عليه الأحفاد، فمشروع الإصلاح باب شامل لجميع مجالات الحياة يُدق متى ما كانت الحاجة إليه لأجل تقويم اعوجاج وتصحيح مسار وتحقيق غاية.

- الإحالات والهوامش:

- 1- ينظر: يحي نبهان، 2008م، معجم مصطلحات التاريخ، يافا للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، ص 20-21.
- 2- محمد بكادي، البعد الكولونيالي في المدرسة الفرنسية التقليدية للأدب المقارن، مجلة الكلم، جامعة أحمد بن بلة بوهران، عدد 01، مجلد 04، أبريل 2019م، ص 11.
- 3- حفناوي بعلي، 2007م، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، ص 65.
- 4- غيسون نايجل سي، 2013م، قانون المخيلة بعد الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ط1، قطر، ص 34.
- 5- بيل أشكروفت وجريفيث جاريث وتيفين هيلين، 2010م، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، ترجمة: أحمد روبي وحلمي أيمن وعثمان عاطف، المركز القومي للترجمة، ط1، مصر، ص 101.
- 6- مرجع نفسه، ص 102.
- 7- محمد دادة، العنف الكولونيالي والمقاومة في الجزائر خلال القرن 19م، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد 14، شعبان 1431هـ/2010م، ص 105.
- 8- مختارية بوعلي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وسؤال الإصلاح، تدليل للدراسات والأبحاث في العلوم الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة بوهران، عدد 07، ماي 2020م، ص 04.
- 9- ينظر: الطاهر سعود، 2012م، الحركات الإسلامية في الجزائر الجذور التاريخية والفكرية، مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط1، الإمارات العربية المتحدة، ص 266.
- 10- صادق بلحاج، 2011م/2012م، الصحافة العربية في الجزائر بين التيارين الإصلاحي والتقليدي 1939/1919م-دراسة مقارنة، مذكرة ماجستير في تاريخ الجزائر الثقافي والتربوي، جامعة وهران، ص 31.
- 11- عبد الكريم بو الصفصاف، 2007م، رواد النهضة والتجديد في الجزائر 1889-1965، دار الهدى، ط2، ص 50.
- 12- الطاهر سعود، الحركات الإسلامية في الجزائر الجذور التاريخية والفكرية، مرجع سابق، ص 232.
- 13- ينظر: غيسون نايجل سي، قانون المخيلة بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص 149.
- 14- أحمد طالب الإبراهيمي، 1997م، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج 3 (عيون البصائر)، ط1، ص 80.
- 15- ينظر: الطاهر سعود، الحركات الإسلامية في الجزائر الجذور التاريخية والفكرية، مرجع سابق، ص 233.
- 16- مالك بن نبي، 1986م، وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط5، دمشق، ص 117.
- 17- مرجع نفسه، ص 352.
- 18- أبو القاسم سعد الله، 1998م، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، ج 04، ط01، ص 349.
- 19- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 81-82.
- 20- مصدر نفسه، ص 80-81.
- 21- ينظر: الطاهر سعود، الحركات الإسلامية في الجزائر الجذور التاريخية والفكرية، مرجع سابق، ص 240.
- 22- عبد القادر معمر الدين، 2010م/2011م، أشكال التعبير الأدبي في كتابات البشير الإبراهيمي، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، ص 18.

- 23- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 78-79.
- 24- مصدر نفسه، ص 97.
- 25- ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 202.
- 26- ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 204.
- 27- مصدر نفسه، ص 98.
- 28- مصدر نفسه، ص 203.
- 29- محمد البشير الإبراهيمي، 2018م، من أنا؟ سيرته بقلمه، تح: رابح بن خوية، منشورات الوطن، سطيف، ص 21-22.
- 30- ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 308.
- 31- ينظر: مصدر نفسه، ص 309-310.
- 32- مصدر نفسه، ص 310.
- 33- محمد البشير الإبراهيمي، من أنا؟ سيرته بقلمه، مرجع سابق، ص 44.
- 34- ينظر: الطاهر سعود، الحركات الإسلامية في الجزائر الجذور التاريخية والفكرية، مرجع سابق، ص 235.
- 35- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 57.
- 36- مصدر نفسه، ص 206.
- 37- ينظر: مصدر نفسه، ص 206.
- 38- مصدر نفسه، ص 207.
- 39- مصدر نفسه، ص 207.
- 40- مصدر نفسه، ص 208.
- 41- مصدر نفسه، ص 294.
- 42- مصدر نفسه، ص 294.
- 43- مصدر نفسه، ص 296.
- 44- محمد البشير الإبراهيمي، من أنا؟ سيرته بقلمه، ص 41.
- 45- مرجع نفسه، ص 55.
- 46- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 509.
- 47- مصدر نفسه، ص 511.
- 48- مصدر نفسه، ص 514.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله، 1998م، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، ج 04، ط 01.
- 1- أحمد طالب الإبراهيمي، 1997م، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج 3 (عيون البصائر)، ط 1.
- 2- الطاهر سعود، 2012م، الحركات الإسلامية في الجزائر الجذور التاريخية والفكرية، مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط 1، الإمارات العربية المتحدة.
- 3- بيل أشكروفت وجريفيث جاريث وتيفين هيلين، 2010م، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، ترجمة: أحمد روبي وحلمي أيمن وعثمان عاطف، المركز القومي للترجمة، ط 1، مصر.
- 4- حفناوي بعلي، 2007م، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، الجزائر.
- 5- صادق بلحاج، 2011م/2012م، الصحافة العربية في الجزائر بين التيارات الإصلاحية والتقليدية 1939/1919م-دراسة مقارنة، مذكرة ماجستير في تاريخ الجزائر الثقافي والتربوي، جامعة وهران.
- 6- عبد الكريم بو الصفصاف، 2007م، رواد النهضة والتجديد في الجزائر 1889-1965، دار الهدى، ط 2.
- 7- محمد البشير الإبراهيمي، 2018م، من أنا؟ سيرته بقلمه، تح: رابح بن خوية، منشورات الوطن، سطيف.

- 8- محمد دادة، العنف الكولونيالي والمقاومة في الجزائر خلال القرن 19م، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد 14، شعبان 1431هـ/2010م.
- 9- مختارية بوعلي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وسؤال الإصلاح، تدليل للدراسات والأبحاث في العلوم الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة بوهران، عدد 07، ماي 2020م.
- 10- يحي نبهان، 2008م، معجم مصطلحات التاريخ، يافا للنشر والتوزيع، ط1، الأردن.
- 11- عبد القادر معمر الدين، 2010م/2011م، أشكال التعبير الأدبي في كتابات البشير الإبراهيمي، مذكرة ماجستير، جامعة وهران.
- 12- غبسون نايجل سي، 2013م، قانون المخيلة بعد الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، ط1، قطر.
- 13- محمد بكادي، البعد الكولونيالي في المدرسة الفرنسية التقليدية للأدب المقارن، مجلة الكلم، جامعة أحمد بن بلة بوهران، عدد 01، مجلد 04، أبريل 2019م.